**سورة "عبس"**

**دراسة في السياق والدلالة**

**الباحث: حيدر خشان ياسين**

**haider.aljaberi@yahoo.com**

**المستخلص:**

سورة "عبس" واحدة من السور القرآنية التي اختلف المفسرون كثيرًا في الشخص المعاتب فيها، ومدى انسجام الخطاب مع الشخصية الرسالية للنبي، وكذلك مدى انسجام ذلك مع عصمة النبي، لذا رأينا ذكر تلك الآراء من خلال دراسة السياق الذي جاءت به.

الكلمات المفتاحية: (القرآنية ، نبي، عبس، كلام).

**Surat "Abbas"**

**is a study in context and significance**

**Researcher: Haider khashan yassin**

**Abstract :**

Surat “Abbas” is one of the surahs of the Qur’an in which the commentators differed a lot regarding the person who is reprimanded, and the extent to which the discourse is consistent with the messianic personality of the Prophet, as well as the extent of this in harmony with the infallibility of the Prophet, so we saw mentioning these views by studying the context in which they came.

Key words:( Context, Prophet, frowned, speech).

**المبحث الأول**

**أولًا: تعريفات السِّياق**

السِّياق في سُقْتُهُ‏ اللغة: سَوْقاً، و رأيته‏ يَسُوقُ‏ سِيَاقاً أي ينزع نزعا يعني الموت‏([[1]](#endnote-1)).

سَوْقُ‏ الإبل: جلبها و طردها، يقال: سُقْتُهُ‏ فَانْسَاقَ‏، و السَّيِّقَةُ: ما يُسَاقُ‏ من الدّوابّ. و سُقْتُ‏ المهر إلى المرأة، و ذلك أنّ مهورهم كانت الإبل‏([[2]](#endnote-2)).

والتتبّع لهذه التعريفات، يعطي لكلمة السياق معاني المتابعة والقود للشيء، والسَّوق باتجاه ما يريد صاحبه، وفي معنى الكشف للسَّاق، وظهور ما تحته، أي بيان ما يحمله السيِّاق من المعاني والدلالات والتتابع في جلب الشيء.

وفي الاصطلاح، عرّفوا السِّياق: بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه([[3]](#endnote-3)).

وأيضاً، السياق: علاقة البناء الكلي للنص بأيّ جزء من أجزائه([[4]](#endnote-4)).

والسياق: يتعلق بقضايا التأويل والإشارة والأيدولوجيا والعالم الخارجي كله([[5]](#endnote-5))، والسياق ذو أهمية قصوى في بعض تراكيب النصوص، فلا بدّ من الوقوف عند لمعرفة المعنى والمراد، فبعض المسكوت عنه لمقتضيات الكلام وضرورات الحوار، والهدف من الخطاب، يكون السياق كاشفاً عنه، وهو يحتاج لأدوات للتنقيب عنه في بعض الحالات التي قد تكون خاصة.

وما دمنا نبحث عن دلالة السياق في التفسير، يمكن لنا أنْ نجده عند الأصوليين والمفسرين، حيث مباحث التفسير كانت جزءًا من مباحث الأصول عند العلماء الأولين، مثل الشافعي في رسالته، حيث يذكر في صنف ما يبين سياقه معناه، ففي معنى قول إخوة يوسف: "ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ\* وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ"([[6]](#endnote-6)).

يقول: فهذه الآية في مثل معنى الآيات قبلها لا تختلف عند أهل العلم باللسان إنهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة أهل القرية وأهل العير لأن القرية والعير لا ينبئان عن صدقهم([[7]](#endnote-7)).

نلاحظ هنا أن الشافعي(ت/204ه)، يشير لسياق الجملة كلّها، بسياق اللغة التي عرف من خلالها أن المقصود بالقرية أهلها. وإن كان الغرض من دراسة السياق، هو الوقوف على الدلالة المقصودة في الخطاب، (فالسياق هو خادم للنظم؛ لأنّ النظم يوضح الوجوه البيانية ويجليها، وينظر في تناسب المعاني بألفاظها؛ لأنّه لا يكاد يبين المعنى، حتى يتمّ إبراز السياق من خلال دلالته المعنوية بسباقه ولحاقه، ومن ثم يتضح الوجه المبحوث عنه بواسطة النظم)([[8]](#endnote-8)).

وفي اصطلاحات أهل اللغة قديماً، كان السياق حاضراً بمعانٍ أُخرى، "وقد استخدم كثير من العلماء العرب إلى جانب مصطلح السياق مصطلحات أخرى تؤدي نفس المعنى أو ما يقرب من ذلك على سبيل المثال: الموقف، الحال، المقام([[9]](#endnote-9)). وابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، يشير لذلك المعنى من سياقات الحال والمقام:...ثم يقول وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد وجلالة المقام([[10]](#endnote-10)).

والسياق يتصل بالدلالة، وبالتالي هو لصيق الثقة بالنظم العربي، وله جذوره التي تحدث عنها البلاغيون، فالجرجاني(ت471ه)،يوضح معنى النظم وربطه بالسياق: "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، ويعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها([[11]](#endnote-11)).

يحظى السياق في النصوص الدينية بأهمية، كالتي يحظى بها في النصوص المختلفة الأخرى، فإنها: "ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته([[12]](#endnote-12)).

**ثانيًا: أنواع السِّياق**

بعد تعريفات السياق، والوقوف على الأهمية لتناول هذا الموضوع عند أي دراسة لنصٍ مهما كان نوعه، تختلف أيضاً أنواعه باختلاف النصّ المدروس، فهناك سياق أدبي، وسياق اجتماعي، وسياق ديني وقرآني، والذي يعنينا هنا، هو السِّياق القرآني، كي نقف من خلاله على مساحة أوسع في فهم السورة المدروسة في هذا البحث.

والسياق يكون سياق آية أو مقطع أو سورة أو سياقاً كلياً للقرآن، حيث قيل:" السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه قد يقتصر على آية واحدة، ويضاف إليها، وقد يكون له امتداد في السور كلها، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه ويلحقه، وقد يطلق على القرآن بأجمعه، ويضاف إليه، بمعنى أن هناك: سياق آية، وسياق نص، وسياق سورة، والسياق القرآني، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى([[13]](#endnote-13)).

ويمكن أن نعدّ هذا التقسيم تقسيماً خارجياً وعاماً للغة القرآن.

والنوع الأول: وهو سياق الآية، "يكون النظر في سياق الآية -سباقها ولحاقها-،دون تجاوز ذلك إلى ما سبقها أو لحقها من آيات؛ لتحديد واقتناص المعنى المراد لأحد المفردات من خلال معانيها المتعددة والمحتملة([[14]](#endnote-14))، ومثال ذلك ما قاله ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"([[15]](#endnote-15)).

فقال ابن كثير(ت774ه):" الفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك غليظ القلب، أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألانَ جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم([[16]](#endnote-16)).

أما النوع الثاني، وهو سياق المقطع من السورة، فإن الآيات فيه، كما ذكرها محمد عبد الله دراز([[17]](#endnote-17))،:" لتلتحم كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب..([[18]](#endnote-18)).

النوع الثالث: وهو سياق السورة كلها، فلكل سورة من القرآن غرض عام مهيمن على أجواء العامة فيها، مع اختلاف تفصيلاتها ومعالجاتها، "فتتناسق أوضاعها، وتتآلف عناصرها، ويأخذ بعضها بحُجَزِ بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها"([[19]](#endnote-19)).

وما ذكره القرطبي([[20]](#endnote-20))(ت/671ه)، في هذا المجال، وهو تناسب وتناسق آيات القرآن، وتتشكل هنا ظاهرة الإعجاز بأبهى وأجلى صورها، حيث يقول: "التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف. قال تعالى:" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"([[21]](#endnote-21))([[22]](#endnote-22)).

أما الرابع والأخير، فهو سياق القرآن كله، في استعمالات ألفاظه، ومقاصده وأهدافه السامية، والمقصود بالمعاني الكلية:" هو ما يرد في القرآن الكريم من ألفاظ يطّردُ أو يغلب استعمالها على معنى واحد، وهو ما يسميه العلماء بــــ(كليات الألفاظ)"([[23]](#endnote-23)).

ومثال هذا النوع ما قالوه: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه وسوابقه أو قرائنه، وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف"([[24]](#endnote-24)).

وأيضاً، ما ذكره الشنقيطي في معنى قوله تعالى: "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ([[25]](#endnote-25))، قد دلّ استقراء القرآن العظيم على أن الله-جل وعلا-إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى المتضمنة صفاته العليا"([[26]](#endnote-26)).

كثيرة هي الدراسات التي صبّت جهداً كبيراً للعناية بدلالات السياق، حتى خلصوا لتعريفات خاصة بالسياق القرآني بالتحديد، فقيل في تعريف **السياق القرآني: "هو ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال من حال المخاطِب، والمخاطَب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه"**([[27]](#endnote-27)).

وقيل أيضاً في التعريف: "الأغراض التي بنيت عليها الآية وما انتظم بها من القرائن اللفظية الحالية وأحوال المخاطبين بها"([[28]](#endnote-28)).

**المبحث الثاني**

**سورة عبس**

**دراسةٌ في السياق والدلالة**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"عَبَسَ وَتَوَلَّى\*أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى\*وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى\*أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى\*أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى\*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. (سورة عبس1-6)

ذكروا في سبب نزول السورة، التي خصّت الأعمى، "وهو ابن أُم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم هو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبياً وأميةَ ابنَي خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أُم مكتوم وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطع كلامه....."([[29]](#endnote-29))

والسورة مكية كما هو إجماع المفسرين([[30]](#endnote-30)).

العبس في اللغة: عبس يعبس عبوسا فهو عابس الوجه غضبان([[31]](#endnote-31)).

العُبُوسُ: قُطُوبُ الوجهِ من ضيق الصّدر([[32]](#endnote-32)).

عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْساً و عَبَّس: قَطَّبَ ما بين عينيه، و رجل عابِسٌ من قوم عُبُوسٍ. و يوم عابِسٌ و عَبُوسٌ: شديد([[33]](#endnote-33)).

ويضيف المصطفوي: "فالتكرّه مقدّمة تحصل قبل العبوس. كما أنّ الشدّة والغضب يكونان من آثاره، ويتحصّلان بعد تحقّقه، و ليسا من الأصل"([[34]](#endnote-34)).

والمعنى المُحصّل من ذلك، أن الموجّه لهُ الخطابُ هذا أصابه التضايق والغضب من مجيء الأعمى لسؤاله، وتشير حادثة النزول –وإن كانت لا تكشف عن كل تفاصيل الحادث- إلى واقع اجتماعي خاص حاصل في المجلس ذاك، وتأتي أهميته الهدف الذي يتوخاه صاحبه من حديثه مع صناديد قريش على ما يشير له سبب النزول .

بصيغة الفعل الماضي(عبسَ) أشارت الآية وركّزت على الحادثة والفعل، دون الإشارة لضمير العابس المخاطَب، وهذا لهُ دلالة في التوكيد ولفت الذهن للفعل دون الفاعل، ومن هنا اختُلف في هوية العابس، أهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم هو شخص آخر؟

"هذه الآية تشتمل على الفعل الماضي، أي: عبس وتولّى، والفاعل فيه ضمير مستتر، ولا مرجع له في اللفظ، فلا يتعين واحدٌ بعينه حتّى يكون هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والله أعلم بمن عبس وتولّى. منشأ الإشكال هو أنَّ هناك خطاباً، والقدر المتيقن من المخاطبين هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودفع الإشكال يبتني على أنَّ الآية لا تشتمل على الخطاب، وإنما على الفعل الماضي"([[35]](#endnote-35)).

والرازي(ت606ه)، حيث يعرض لآيات السورة بالتفسير، يوضح ذلك بتساؤلات ثم إجابة عليها، وفي الإخبار بالفعل الماضي ثم توجيه الخطاب يوضح الرازي بهذا القول:" و اعلم أن في الأخبار عما فرط من رسول اللّه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجها بالتوبيخ و إلزام الحجة"([[36]](#endnote-36))

ولعلّ سياق المقطع الذي أشرنا له، لا يُعين على الربط بين الآيات الثلاث الأُولى، إلا إذا اتجهنا نحو سياق الحال والموقف وتحليل الآيات وفقاً له، فحرص السماء على صاحب الرسالة، وملاحظة علو المخاطِب، وهو الله تعالى، والعتاب الواقع على فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يمكن له أن يقرّب لنا كثيراً، ويرفع الغموض والالتباس في تباين الخطاب بين آيات السورة الواحدة، وملاحظة الهدف العام للسورة يمكن أن يشكل نقطة عبورٍ لفهمٍ آخر أيضاً.

"لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة و السلام من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، و هو أن قلبه عليه الصلاة و السلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم و شرفهم و علو منصبهم، و كان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه و عدم قرابته و قلة شرفه، فلما وقع التعبيس و التولي لهذه الداعية وقعت المعاتبة، لا على التأديب بل على التأديب لأجل هذه الداعية"([[37]](#endnote-37)).

ومما استُفيد من السياق ايضاً، هو أن الشخصية المعاتَبة في السورة، تملك دوراً رسالياً في تزكية الناس، وهذا ما لا يتناسب مع الروايات التي تشير إلى أن المعنيّ بها هو رجلٌ من بني أُمية، وقد قيل:" إن القسوة الملحوظة في الآيات في الحديث مع النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلّم تمثل ظاهرة واضحة في أكثر الآيات التي تتصل بسلامة الدعوة و استقامة خطها، سيما في قوله تعالى: (فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ)([[38]](#endnote-38))، و قوله تعالى في الحديث عن المحاولات التي يبذلها المشركون للتأثير عليه من أجل الافتراء على اللَّه: (وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً)([[39]](#endnote-39)). واعترض صاحب الميزان على ذلك، مستدلاً بالآيات التي تشير لخلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، معتقداً أن ذلك لا يتناسب مع مقامه :" و قيل- بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبي صلى الله عليه وآله-: أن في التعبير عنه أولا بضمير الغيبة إجلالا له لإيهام أن من صدر عنه العبوس و التولي غيره صلى الله عليه وآله؛ لأنه لا يصدر مثله عن مثله، و ثانيا بضمير الخطاب إجلالا له أيضا لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش و الإقبال بعد الإعراض. وفيه أنه لا يلائمه الخطاب في قوله بعد: (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى‏ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) إلخ، والعتاب والتوبيخ فيه أشد مما في قوله: (عَبَسَ وَ تَوَلَّى) إلخ، ولا إيناس فيه قطعا. قوله تعالى: (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى‏ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى) الغنى و الاستغناء والتغني والتغاني بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبس بالغنى ولازمه التقدم و الرئاسة و العظمة في أعين الناس و الاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى:(إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏)([[40]](#endnote-40))، و التصدي التعرض للشيء بالإقبال عليه والاهتمام بأمره"([[41]](#endnote-41)).

وقد طُرحت وجوهٌ لفهم نوع الخطاب، ومدى مخالفته وموافقته لمفهوم العصمة النبوية، وفي ذلك قيل: "أن نذعن ايضاً بأن الخطاب متوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو الفاعل، ولكننا نقول: إن هذا العمل وإن كان بنفسه يعدّ عملاً أخلاقياً مرجوحاً، إلا أن المصلحة اقتضت ارتكابه، وحينها يخرج عن المرجوحية ليصير فعلاً راجحاً أو ضرورياً، فتكون عدم منافاته للعصمة أوضح، بل ربما لو تركه لكان مخطئاً"([[42]](#endnote-42)). وهذا يعين عليه سياق الآيات المختلفة التي جاءت في عتابٍ مع صاحب الرسالة، وبيان الحجة على الناس، لأن الرسول حجة على الناس في أخلاقه أيضاً، لذا تريد السماء تنزيهها من أي شائبة نفسية أو فعلية. وأشرنا إلى الالتفاتة التي تشير لها الآية، فضمير الغائب في الفعل الماضي، يتناسب مع مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كونه الهادي لهذه الأُمة، فلم ترد الآيات عتابه بالمباشرة وضمير المتكلم والخطاب المقصود منه هوَ عليه الصلاة والسلام، ثم جاء الخطاب بعد ذلك، بقوله:" وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى\*أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى"، مشيرةً لمهمة النبي الرسالية، ودوره في تزكية النفوس وزيادة توجهها للخير وأهله، وهي في محل توبيخٍ لهؤلاء الكفار والصناديد من قريش، في عدم رغبتهم في تزكية نفوسهم وإقبالهم على الإسلام، وهو سياق قرآني معهود(إياك أعني واسمعي ياجارة).

**قوله تعالى: "وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى".**

توضح الآيات أهمية التزكية، ولعلّ الذي جاء من أجله الأعمى لأعم خيراً من هؤلاء المعاندين، فقد تظن أن حديثك يا رسول الله مع هؤلاء أجدى وأنفع "ولكن اللَّه يوجه المسألة إلى ما هو الأعمق في قضية الأهمية في مصلحة الرسالة، باعتبار أن هذا الأعمى قد يتحول إلى داعية إسلاميّ كبير، (وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) في ما يمكن أن يستلهمه من آيات القرآن التي يسمعها، مما يغني له روحه، فتصفو أفكاره، و ترقّ مشاعره، وتتسع آفاقه، وتتعمق معرفته بربه، فيؤدي ذلك إلى عمق في الفكر، وسعة في الأفق، و غنى في الشخصية، و حيوية في الحركة، مما يؤثّر تأثيرا إيجابيا على حركته في الدعوة، فيحصل من ذلك على خير كبير: (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى)‏، في ما يمكن أن يعيشه من غفلة عن بعض الحقائق، أو جهل ببعض القضايا، فتأتي الكلمات القرآنية لتقشع عنه سحائب الغفلة، و تأتي الكلمات الرسولية لترفع عنه حجاب الجهل، فإذا حدث له ذلك، أمكن لهذا التطور في شخصيته، أن يحقق النفع للخط الإسلامي المستقيم على مستوى الالتزام و الدعوة و الحركة"([[43]](#endnote-43))

(وما يدريك)،يمكن أن نفهم الــــ(ما) هنا تعجبية، لأنها تتناسب مع مقام العتاب، ومن ذهب إلى أنها تعجبية، قال: "أن التعجب ليس تعجباً حقيقة، بل هو تعجب استنكاري كحال السياق في سائر الآيات، كما هو مفاد غير واحدة من الأُطروحات، وعليه الفهم المشهور؛ فإنه استنكارٌ كلّه. لماذا عبس؟ ولماذا تولى؟ وقد يكون التعجب هنا للتبكيت أو للاستنكار، فيكون بمعنى نفي التعجب"([[44]](#endnote-44))

والطوسي(ت460ه) يذهب للربط بين الآيتين الأولين، بقوله" وقوله(وما يدريك) خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وتقديره(قل) يا محمد(وما يدريك لعله يزّكى) وإنما أضاف العبوس إلى النبي صلى الله عليه وآله من اضاف(وما يدريك) أنه رآه متوجهاً إليه ظن أنه عتب له دون أن يكون متوجهاً إليه على أن يقول لمن فعل ذلك ويوبخه عليه"([[45]](#endnote-45)).

**قوله تعالى: "أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى".**

قيل بمعنى الذكر: "الذِّكْرُ: تارة يقال و يراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنّ الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، و الذِّكْرُ يقال اعتبارا باستحضاره، و تارة يقال لحضور الشي‏ء القلب أو القول، و لذلك قيل: الذّكر ذكران: ذكر بالقلب. و ذكر باللّسان"([[46]](#endnote-46)).

"الذكرى: مصدر ذكرته، وليس باسم مصدر- إن هو الّا ذكرى للعالمين، وموعظة و ذكرى للمؤمنين، إنّ في ذلك لرحمة و ذكرى، تبصرة و ذكرى. وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين"([[47]](#endnote-47)).

وقيل في المعنى أن يتذكر ما أمره الله تعالى به، ويفكر فيما أمره الله تعالى به، وما أوضحه له في آياته، فالذكرى هنا مصدر متضمن لمعنى فعله من ذكر يذكر([[48]](#endnote-48)).

**قوله تعالى: "أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى\*فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى".**

تنتقل الآيات في الحديث عمّن كانوا طرف المحاورة في المجلس، وهذه صفاتهم، الإعراض والاستغناء. وقيل في معنى الاستغناء: "و استغنى الرجل: أصاب غنى. والغنية: اسم من الاستغناء، تغنى على معنى استغنى. والغناء، ممدود، في الصوت. وغنى يغني أغنية و غناء. و الغناء: الاستغناء و الكفاية، و رجل مغن، أي: مجزىء. و قد غني عنه فهو غان"([[49]](#endnote-49)).

"أَي اطَّرَحَه اللهُ و رَمَى به من عَيْنه فِعْلَ من اسْتَغْنَى عن الشي‏ء فلم يَلْتَفِتْ إليه، وقيل: جَزاهُ جَزاءَ اسْتِغْنائه عنها"([[50]](#endnote-50)).

واستغناؤهم بمعنى عدم التفاتهم لنصح النبي ودعوته، والقرآن أشار لما في نفوسهم، وما يختلج بداخلهم، وهو جاؤوا يراءون الناس، كي يساوموا النبي صلى الله عليه وآله على ما عندهم. وفي معنى تصدَّى:" التَّصَدِّي: التَّعَرُّض للشي‏ءِ. و تَصَدَّى للأَمر: رَفع رأْسَه إليه. و الصَّدَى: فعلُ المُتَصَدِّي. و الصَّدَاةُ: فعلُ المُتَصَدِّي، و هو الذي يَرْفعُ رأْسَه و صَدْرَه يتصَدَّى للشي‏ء يَنْظُر"([[51]](#endnote-51)).

فأراد القرآن الكريم أن يركّز على الطبقة التي تُصدّق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فالمهم هو الإيمان وليس الغنى والوجاهة الفارغة لصناديد قريش، "(أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى)‏ فلم تكن لديه أيّة ميزة إلّا غناه، و كان يعتبر أن الغنى يمثّل عمق القيمة التي تمنحه موقعا اجتماعيا متقدّما، و تغريه- دائما- بأن يضع كل فكره و عمله و علاقاته بالناس في خدمة هذا الغنى، حتى أن انتماءه إلى أيّ دين أو مذهب يتحرك في جهة الدين الذي يخدم مصلحته المادية، و المذهب الذي يدعم ثروته، (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) لتحاول بجهدك الرسالي أن تمنحه زكاة الروح و طهارة الفكر، في ما تحسبه من النتائج الكبيرة لذلك على مستوى امتداد الإسلام في قريش"([[52]](#endnote-52)). ولصاحب التفسير الكاشف، رأي يمكن أن يكون له وجهٌ مقبول في التعرّف على مقصود آيات العتاب هذه، فيقول:" لا لوم و لا عتاب على النبي و لا على الأعمى في هذه الآيات، وإنما هي في واقعها تحقير و توبيخ للمشركين الذين أقبل عليهم النبي بقصد أن يستميلهم و يرغبهم في الإسلام لأن اللّه يقول لنبيه في هذه الآيات: لما ذا تتعجل النصر لدين اللّه، وتسلك إليه كل سبيل حتى بلغ الأمر أن ترجو الخير وتأمل هداية أشقى الخلق وأكثرهم فسادا وضلالا .. دعهم في طغيانهم، وأغلظ لهم، فإنهم أحقر من أن ينتصر اللّه بهم لدينه، و أضعف من أن يقفوا في طريق الإسلام و تقدمه، فإن اللّه سيذل أعداءه مهما بلغوا من الجاه و المال، و يظهر دينه على الدين كله و لو كره المشركون .. فهذه الآيات قريبة في معناها من قوله تعالى: (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ)([[53]](#endnote-53)). ثم انتقل سبحانه الى تقرير الحقيقة المطلقة، و هي (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ) قررها بأسلوب آخر، وهو أنَّ الذي يخشى و يزكى و تنفعه الذكرى هو الذي يستحق التكريم و التعظيم، أما من يعرض عن الحق و لا ينتفع بمواعظ اللّه فيجب نبذه و احتقاره، و ان كان أغنى الأغنياء و سيد الوجهاء"([[54]](#endnote-54)).

الهوامش:

1. () الفراهيدي/العين،5/190. [↑](#endnote-ref-1)
2. () الراغب الأصفهاني/المفردات في ألفاظ القرآن،1/436. [↑](#endnote-ref-2)
3. () رمزي البعلبكي/ معجم المصطلحات اللغوية/119. [↑](#endnote-ref-3)
4. () محمد علي الخولي/ معجم علم اللغة النظري/57. [↑](#endnote-ref-4)
5. () صلاح فضل/ بلاغة الخطاب/244. [↑](#endnote-ref-5)
6. () يوسف/81-82. [↑](#endnote-ref-6)
7. () الشافعي/ الرسالة/64. [↑](#endnote-ref-7)
8. () المثنى عبد الفتاح محمود/ نظرية السياق القرآني/19. [↑](#endnote-ref-8)
9. () عبد الفتاح عبد العليم البركاوي/ دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث/28. [↑](#endnote-ref-9)
10. () تأويل مشكل القرآن/13. [↑](#endnote-ref-10)
11. () دلائل الإعجاز/70. [↑](#endnote-ref-11)
12. () ابن قيم الجوزية/ بدائع الفوائد/9. [↑](#endnote-ref-12)
13. () عبد الوهاب رشيد صالح/دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم/88. [↑](#endnote-ref-13)
14. () عبد الرحمن المطيري/السياق القرآني وأثره في التفسير/رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، إشراف د.خالد القرشي. [↑](#endnote-ref-14)
15. () آل عمران:159. [↑](#endnote-ref-15)
16. () ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم،ج2،ص148. [↑](#endnote-ref-16)
17. () ولد د.محمد الدراز بمصر سنة 1312ه الموافق 1849م،فقيه أديب أزهري، حصل على عضوية جماعة كبار العلماء بالأزهر عام 1949م، ودرّس بجامعة الأزهر وغيرها من الجامعات، له مؤلفات منها: المدخل إلى القرآن رسالة ماجستير، ودستور الأخلاق في القرآن رسالة دكتوراه، والنبأ العظيم، والدين، وغيرها. توفي في باكستان أثناء حضوره المؤتمر الإسلامي سنة 1379ه الموافق 1958م.

    ظ: الزركلي/الأعلام6/246. [↑](#endnote-ref-17)
18. () النبأ العظيم،ص155. [↑](#endnote-ref-18)
19. () محمد الدراز/النبأ العظيم،ص142. [↑](#endnote-ref-19)
20. () محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري لخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق، واستقر بمنية ابن خصيب، في شمال أسيوط بمصر وتوفي فيها سنة 671ه.من كتبه "الجامع لأحكام القرآن، عشرون جزءاً، يعرف بتفسير القرطبي.

    ظ: الزركلي/الأعلام،5/322. [↑](#endnote-ref-20)
21. () النساء/82. [↑](#endnote-ref-21)
22. () القرطبي/الجامع لأحكام القرآن،1/119. [↑](#endnote-ref-22)
23. () السياق القرآني وأثره في التفسير/122. [↑](#endnote-ref-23)
24. () الشاطبي/الموافقات،ج3،ص236. [↑](#endnote-ref-24)
25. () الزمر/1. [↑](#endnote-ref-25)
26. () أضواء البيان،7/41. [↑](#endnote-ref-26)
27. () سعيد الشهراني/السياق القرآني وأثره في المدرسة العقلية/22. [↑](#endnote-ref-27)
28. () آمال السيد محمد الأمين/أنواع السياق في القرآن الكريم، بحث في مجلة جامعة الناصر، السعودية، العدد السابع-يناير 2016،ص90. [↑](#endnote-ref-28)
29. () الواحدي/ أسباب النزول/297. [↑](#endnote-ref-29)
30. () الطوسي، الزمخشري، الرازي، وآخرون في تفسيرهم لسورة عبس. [↑](#endnote-ref-30)
31. () الفراهيدي/العين،1/343. [↑](#endnote-ref-31)
32. () الراغب/المفردات،1/544. [↑](#endnote-ref-32)
33. () ابن منظور/ لسان العرب،6/128. [↑](#endnote-ref-33)
34. () التحقيق في كلمات القرآن،8/20. [↑](#endnote-ref-34)
35. () محمد الصدر/منة المنان،5/125. [↑](#endnote-ref-35)
36. () مفاتح الغيب،31/53. [↑](#endnote-ref-36)
37. () مفاتح الغيب،31/53. [↑](#endnote-ref-37)
38. () الحاقة/47. [↑](#endnote-ref-38)
39. () الإسراء/73-75. [↑](#endnote-ref-39)
40. () العلق/7. [↑](#endnote-ref-40)
41. () الطباطبائي، 20/200. [↑](#endnote-ref-41)
42. () محمد الصدر/منة المنان،5/127. [↑](#endnote-ref-42)
43. () محمد حسين فضل الله/من وحي القرآن،24/66. [↑](#endnote-ref-43)
44. () محمد الصدر/ منة المنان،5/141. [↑](#endnote-ref-44)
45. () الطوسي/التبيان،10/269. [↑](#endnote-ref-45)
46. () الراغب/المفردات،1/328. [↑](#endnote-ref-46)
47. () المصطفوي/التحقيق في كلمات القرآن،3/319. [↑](#endnote-ref-47)
48. () ظ: الطوسي/التبيان،10/269. [↑](#endnote-ref-48)
49. () الفراهيدي/العين،4/450. [↑](#endnote-ref-49)
50. () ابن منظور/لسان العرب،15/136. [↑](#endnote-ref-50)
51. () المصدر نفسه،14/455. [↑](#endnote-ref-51)
52. () محمد حسين فضل الله/من وحي القرآن،24/67. [↑](#endnote-ref-52)
53. () فاطر/8. [↑](#endnote-ref-53)
54. () محمد جواد مغنية،7/516.

    **المصادر:**

    خير ما نبتدىء به القرآن الكريم

    أولاً: الكتب.

    1- المثنى عبد الفتاح محمود. نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار وائل،الأردن،ط1، 2008م.

    2- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، شرح ونشر: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية،بيروت،ط3، 1401ه-1981م.

    3- ابن قيم الجوزية، محمد بن ابي بكر بن أيوب. بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة،ط2، 1427ه.

    4- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة-الرياض، الإصدار الثاني،ط1، 1422ه-2002م.

    5- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711ه)،لسان العرب، تحقيق: أحمد فارس صاحب الجوائب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ودار صادر، بيروت،ط3،1414ه.

    6- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)،المحقق: صدقي محمد جميل، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه.

    7- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الإصفهاني (المتوفى: 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم الشامية، دمشق-بيروت، ط1، 1412ه.

    8- الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه.

    9- الجاحظ، ابو عثمان(ت255ه)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت،ط1، 1423ه.

    10- الجرجاني، عبد القاهر عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تصحيح: محمد عبده، محمد محمود الشنقيطي، ومحمد رشيد رضا، مطبعة المنار،ط2، 1331ه.

    11- حسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، طهران، جماعة المدرسين،ط1، 1393ه.

    12- خلود العموش. الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث- الأردن، وجدارا للكتاب العالمي-الأردن،ط1، 1429ه-2008م.

    13- الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175ه)،العين، منشورات الهجرة، ط2،1410ه.

    14- الرازي فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر(ت606ه) ، مفاتيح الغيب=التفسير الكبير=تفسير الرازي، دار الفكر،بيروت،ط1، 1981م.

    15- رمزي البعلبكي. معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين،ط1، 1990م.

    16- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين،بيروت،ط10، 1992م.

    17- الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد(ت538ه)،الكشّاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مصطفى بابي الحلبي وأولاده،القاهرة،1968.

    18- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق،القاهرة،ط13، 1987م.

    19- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (ت790ه)، الموافقات في أصول الشريعة، ضبط وتصحيح أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية،ط1، 1417ه-1997م .

    20- الشافعي، محمد بن إدريس(204ه).الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر(دون بيانات طبع).

    21- صلاح فضل. بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع،ط1، 2004ه.

    22- الطباطبائي، محمد حسين(ت1404ه)، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين،قم،1393ه.

    23- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن(ت548ه)،مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي،بيروت،2005م.

    24- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د.عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب،الرياض،ط1، 1424ه-2003م.

    25- الطريحي، فخر الدين(ت1085ه).مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، مؤسسة التاريخ العربي،بيروت،ط3، 2002م.

    26- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن(ت406ه)،التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي،ط1،دار إحياء التراث العربي،بيروت،2005م.

    27- عائشة عبد الرحمن-بنت الشاطئ، التفسير البياني، دار إحياء التراث،بيروت،ط1، 2005م.

    28- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي(ت770ه).المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان،بيروت،ط3،1987م.

    29- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر(ت671ه) .الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان، تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط1، 1427ه-2006م.

    30- محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، مطبعة ستار،ط3، 1426ه-2005م.

    31- محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن، دار الملاك للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1419ه.

    32- محمد صادق الصدر، منة المنان في الدفاع عن القرآن، مكتبة البصائر،لبنان،بيروت،ط2،2010م.

    33- محمد علي الخولي. معجم علم اللغة النظري، دار فلاح للترجمة والنشر والتوزيع،لبنان،ط2،1991م.

    34- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد(468ه).أسباب النزول، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار القبلة للثقافة الإسلامية،ط2، 1404ه-1984م.

    ثانياً: الرسائل والأطاريح:

    1- سعيد الشهراني. السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، دراسة نظرية تطبيقية، رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لجامعة أم القرى،1427ه-2006م.

    2- عبد الرحمن المطيري. السياق القرآني وأثره في التفسير، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، إشراف د.خالد القرشي.

    ثالثاً: الدوريات والمجلات.

    1- آمال السيد محمد الأمين. أنواع السياق في القرآن الكريم، بحث في مجلة جامعة الناصر، السعودية، العدد السابع-يناير 2016م.

    2- خليل خلف بشير العامري. السياق وأنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد التاسع، العدد الثاني،2010م. [↑](#endnote-ref-54)